الاكتفاء

بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

تأليف

أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

(٥٦٥ - ٦٣٤هـ)

المجلّد الأوّل - الجزء الأوّل

[مغازي الرسول صلّى الله عليه وسلّم وسيرته]

تحقيق

دكتور محمّد كمال الدين عزّ الدين علي

عالم الكتب

عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ ـ ١١، برقياً: نابعلبكي
هاتف: ٨١٩٦٨٤ ـ ٣١٥١٤٢ ـ ٦٠٣٢٠٣ (٠١)
خليوي: ٣٨١٨٣١ (٠٣)
فاكس: ٦٠٣٢٠٣ ـ ١ (٩٦١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX : 11- 8723, CABLE : NABAALBAKI
TEL.: 01- 819684/ 315142/ 603203
CELL. 03 - 381831 FAX : 961 - 1 603203

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

يمنع طبع هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، كما يمنع الاقتباس منه أو التمثيل أو الترجمة لأية لغة أخرى، أو نقله على أي نحو، وبأية طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية مسبقة من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

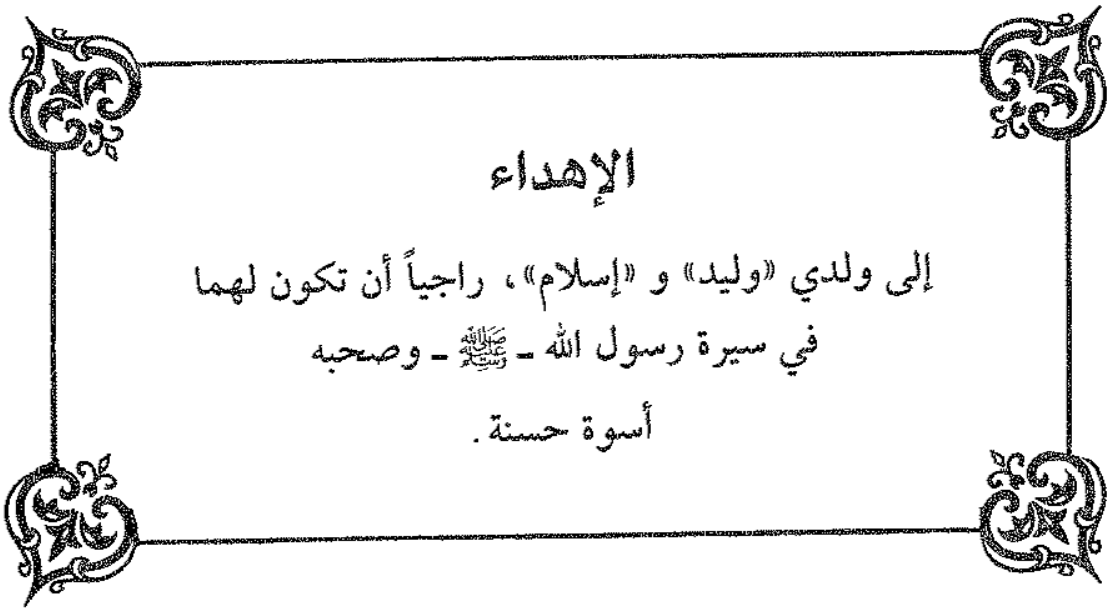

الإهداء

إلى ولدي «وليد» و «إسلام»، راجياً أن تكون لهما
في سيرة رسول الله - ﷺ - وصحبه
أسوة حسنة.

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو كتاب «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ ومغازي الثلاثة الخلفاء» لابن سالم الكَلاَعي، يسعدني أن أقدمه محققاً لدارسي السيرة النبوية العطرة والفتوحات الإسلامية، والمطالعين لمادة ما دون فيهما، وهو ـ فيما أعلم ـ مما لم أسبق إلى نشرة مكتملاً، فضلاً عن تحقيقه.

مؤلف الكتاب:

ومؤلفنا الذي نيسر هذا السفر الجليل من آثاره للانتفاع به، هو «أبو الربيع، سليمان(*) بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام، الحميري، الكَلاَعي، البلنسي، الأندلسي، المالكي»، المعروف بابن سالم، وبابن المدلس.

(*) راجع ترجمته في: المنذري. التكملة لوفيات النقلة ج ٣ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ تر ٢٧٧٠، ابن الأبار. تحفة القادم ص ٢٠١ ـ ٢٠٥ تر ٩٠، ابن سعيد المغربي. المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ تر ٥٦١، المراكشي. الذيل والتكملة ج ٤ ص ٨٣ ـ ٩٥ تر ٢٠٣، الحميري. الروض المعطار ص ٤١ ـ ٤٢، الذهبي. تاريخ الإسلام (ط ٦٤) ص ٣٩٤ ـ ٣٩٧ تر ٦٢٤، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤١٧ ـ ١٤١٩ تر ١١٣٥، سير أعلام النبلاء ج ٢٣ ص ١٣٤ ـ ١٤٠ تر ٩٩، العبرج ٥ ص ١٣٧ ـ ١٣٨، ابن شاكر الكتبي. فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٠ ـ ٨١ تر ١٨٢، الصفدي. الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٦ تر ٥٨٥، اليافعي. مرآة الجنان ج ٥ ص ٨٥ ـ ٨٦، النباهي. المرقبة العليا ص ١١٩ ـ ١٢٢، ابن فرحون. الديباج المذهب ج ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨ تر ٨، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٩٨، السيوطي. طبقات الحفاظ ص ٤٩٧ تر ١١٠٣، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦٤.

ولد خارج مرسية من الأندلس، يوم الثلاثاء، مستهل رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة للهجرة (٥٦٥ هـ./ ١١٧٠ م.)، وسيق إلى بلنسية وهو ابن عامين، فنشأ بها، ثم كانت له رحلة إلى أشبيلية، وشاطبة، وغرناطة، وسبتة، ومالقة، ودانة، والإسكندرية، تلقى فيها أكثر فنون المعرفة الشائعة في عصره ـ آنذاك ـ وأجلها الحديث النبوي، والقراءات، والأدب، متتلمذاً على علية علماء عصره؛ ومنهم:

أبو عبد الله ابن نوح، وأبو محمد أيوب بن غالب، وأبو بكر أحمد بن جزي، وأبو بكر عبد الرحمٰن بن مغاور، ومحمد بن الجد، ومحمد بن صاف، ومحمد بن هذيل، ومحمد بن أبي حمزة، ومحمد بن أبي زمنين، ومفوز بن طاهر، وأبو جعفر بن حكم، وأبو الحجاج ابن أيوب، وأبو الحجاج ابن الشيخ، وأبو الحسن نجبة، وأبو الحسين عبد الرحمٰن بن ربيع، وأبو عبد الله بن حميد، وأبو عبد الله بن خلف، وأبو عبد الله بن زرقون، وأبو عبد الله ابن الفخار، وأبو عبد الله ابن أبي العباس المروي، وأبو العباس يحيى بن الحاج، وأبو العطاء وهب بن نذير، وأبو عمر ابن عات، وأبو عمرو عثمان بن يوسف، وأبو القاسم ابن حبيش، وأبو القاسم ابن سمحون، وأبو محمد ابن جمهور، وأبو محمد ابن عبيد الله، وأبو محمد ابن يحيى الحضرمي، وعبد الحق بن بونة، وعبد المنعم بن الفرس، وعبد الوهاب بن عبد الصمد، وأبو الوليد ابن رشد، وأبو جعفر ابن برنجال، وأبو الطاهر ابن عوف، وأبو عبد الله الحضرمي، وأبو القاسم مخلوف بن علي بن جارة . . . وغيرهم.

كما كتب إليه مجيزاً ولم يلقه من أهل المغرب والأندلس:

أبو بكر بن إبراهيم بن جماعة، وأبو الحسن ابن كوثر، وابن مؤمن، وأبو خالد يزيد بن رفاعة، وأبو محمد التادلي، وأبو محمد عبد الحق بن الخراط، وأبو العباس ابن مضاء.

ثم عاد إلى بلنسية، متكلماً على الملوك في مجالسهم، ومبيناً عنهم لما

يريدونه في المحافل على المنابر. وقد ولي خطابة جامعها في أوقات، واستقضى على مذهبه، فعُرِف بالفضل والعدالة في أحواله.

ورحل الناس إليه متنافسين في الأخذ عنه، لكونه «بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي، حافظاً للحديث، مبرزاً في نقده، تام المعرفة بطرقه، ضابطاً لأحكام أسانيده، ذاكراً لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم، ريان من الأدب، كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، خطيباً مصقعاً».

فضلاً عن الكثير من مقومات شخصيته ـ رحمه الله ـ والمتبدية في «كامل المروءة، وطيب العشرة، وحسن الخَلْقِ والخُلُقِ، وجميل الصحبة، وإمتاع المجالسة، وعذب المنطق، والوجاهة، وسري الهمة، وإباء النفس، والنفع بجاهه وماله وعلمه».

فكان من تلامذته، الراوين عنه: أبو بكر ابن أبي جعفر بن عمرو، وأبو بكر عبد الله بن حزب الله، وأبو جعفر ابن علي بن غالب، وأبو زكريا ابن عباس القسنطيني، وأبو الحسن طاهر بن علي الشقري، وأبو الحسين عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن مفوز، وأبو الحجاج ابن عبد الرحمٰن، وأبو عبد الله ابن أحمد الجيار، وأبو عبد الله ابن أبي بكر البري، وابن الأبار، وابن الجنان، وابن الموفق، وأبو عبد الرحمٰن عبد الله بن زغبوش، وأبو العباس ابن علي بن هارون، وأبو العباس ابن محمد بن الغمار، وأبو عمرو ابن سالم، وابن أخيه أبو عمرو ابن عبد الوهاب، وأبو محمد ابن عبد الرحمٰن بن بُرطُله، وأبو المطرف ابن عميرة، وأبو النجاء سلمة بن محمد، وأبو القاسم أحمد بن نبيل، وصالح بن محمد بن سليمان.

وتوفي شهيداً، ضحى يوم الخميس، العشرين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة للهجرة (٦٣٤ هـ./ ١٢٣٧ م.) عن نحو سبعين سنة، في موقعة أَنِيشة EL PUIG ـ على نحو سبعة أميال من بلنسية ـ حاملاً اللواء بيده، مقبلاً غير مدبر، فقد كان ـ رحمه الله ـ «من أولي الحزم والجرأة والبسالة والإقدام والجزالة وثبات الجأش والشهامة ويمن النقيبة، يحضر

الغزوات ويباشر بنفسه القتال، ويبلى فيه البلاء الحسن».

مؤلفاته:

كان ابن سالم الكَلاَعي ـ رحمه الله ـ شاعراً مجيداً، وخطيباً مصقعاً، وكاتباً بليغاً، وعالماً على درجة عالية من الرسوخ في المعارف، والبراعة فيما تولاه منها، مع جودة الانتقاء، وإجادة الإنشاء، ونفاسة الخط، ولذا لا غرو أن خلف عدة مؤلفات في الحديث، والمغازي والسير، والأدب، عُرِفَ لنا من عنواناتها نحو أربعة وعشرين مؤلفاً، وهي:

١ ـ أحاديث مصافحة أبي بكر ابن العربي الإمامين.

٢ ـ أحاديث مصافحة أبي علي الإمامين.

٣ ـ الأربعون حديثاً عن أربعين شيخاً، لأربعين من الصحابة، في أربعين معنى.

٤ ـ الإعلام بأخبار البخاري الإمام، ومن بلغت روايته عنه من الأغفال والأعلام.

٥ ـ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ ومغازي الثلاثة الخلفاء.

٦ ـ الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحِكَم واختراع الأمثال.

٧ ـ برنامج مروياته.

٨ ـ تحفة الرواد في العوالي البلدية الإسناد.

٩ ـ جنى الرطب في سنى الخطب؛ جمع فيه خطبه في الجمع والأعياد وغير ذلك، وهي نحو ثمانين خطبة.

١٠ ـ جهد النصيح وحظ المنيح من معارضة المعري في خطبة الفصيح.

١١ ـ حلية الأمالي في الموافقات من العوالي؛ خرجها من حديثه.

١٢ ـ ديوان رسائله.

١٣ ـ ديوان شعره.

١٤ ـ السباعيات المخرجة من أحاديث أبي علي الصدفي.

١٥ ـ الصحف المنشرة في القطع المعشرة.

١٦ ـ مجاز فتيا اللحن للاحن الممتحن؛ يشتمل على مائة مسألة ملغزة، على نحو ما ذكره الحريري وغيره من فتيا فقيه العرب.

١٧ ـ المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشادات.

١٨ ـ مصباح الظُّلَم من حديث رسول الله ﷺ؛ نحا به منحى الشهاب للقضاعي.

١٩ ـ المعجم في مشيخة أبي القاسم ابن حبيش.

٢٠ ـ المعجم في من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة، رضي الله عنهم.

٢١ ـ مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبي العلاء المعري في ملقى السبيل.

٢٢ ـ ميدان السابقين وحلية الصادقين المصدقين في ذكر الصحابة الأكرمين ومن عداهم بإدراك العهد الكريم من أكابر التابعين.

٢٣ ـ نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم؛ نظم ونثر في مثال النعل النبوية.

٢٤ ـ نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال؛ بني فيه الكلام على التوشيح بما تضمنه كتاب «أبي عبيد» من أمثال العرب، واضطرار الكلام إليها.

الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ ومغازي الثلاثة الخلفاء:

والكتاب موضع التحقيق سفر ضخم أودع فيه ابن سالم الكَلاَعي موضوعه مجملاً حيناً ومسهباً أحياناً، وقد بوب مادته تبويباً حسناً، منظماً له على مقدمة وخاتمة، حصرتا فيما بينهما موضوعين رئيسين، هما:

* سيرة الرسول ـ ﷺ ـ ومغازيه.

* الفتوحات الإسلامية في ظل دولة الخلافة الراشدة.

أما المقدمة، فقد أجمل من خلالها **موضوع الكتاب**، قائلاً:

«... وهذا كتاب ذهبت فيه إلى إيقاع الإقناع، وإمتاع النفوس والأسماع، باتساق الخبر عن سيرة رسول الله ـ ﷺ ـ وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه، وكثير من خصائصه، وأعلام نبوته ومغازيه، وأيامه من لدن مولده إلى أن استأثر الله به وقبض روحه الطيبة إليه، صلوات الله وبركاته عليه.

مقدماً لذلك ما يجب تقديمه، ومتمماً من ذكر أوليته المباركة بلداً ومحتداً بما يحسن علمه وتعليمه».

«... وإذا استوفيت بفضل الله طلق هذا المعنى كما نويت، وبلغت حاجة نفسي منه وقضيت، فلي نية، إن ساعدت المشيئة عليها، في أن أصل هذا الغرض المتقدم، من ذكر مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ بذكر مغازي الخلفاء الثلاثة الأول ـ رضي الله عنهم ... لتنتظم الفائدتان معاً، ويكون الخبر عن مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ ومغازي خلفائه، الذين بهديهم الائتمام، في مكان واحد مجتمعاً».

ودافعه إلى تأليفه:

«... وكل ذلك يشهد الله أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم، وإحسانه العميم، ورحمته التي منها شق لنفسه أنه الرحمٰن الرحيم.

ثم القصد الثاني متوفر على إيثار الرغبة في إيناس الناس بأخبار نبيهم ـ ﷺ ـ وعمارة خواطرهم بما يكون لهم في العاجل والآجل أنفع وأسلم.

وقد عمّ عليه الصلاة والسلام ببركة دعائه سامع حديثه ومبلغه، وقال ﷺ: «**ما أفاد المسلمُ أخاه المسلمَ أفضل من حديث حسن بَلَغه فَبلَّغَه**».

ولا أحسن بعد كتاب الله الذي هو أحسن القَصص وأصدق القِصص، وأفضل الحصص، وأجلى الأشياء للغصص من أخبار رسول الله ـ ﷺ ـ التي بالوقوف عليها توجد حلاوة الإسلام، ويُعْرف كيف تمهدت السبل إلى دار السلام.

فإنه لا يخلو الحاضرون لهذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله في أعداء تنزيله، فيستجزلوا ثواب الفرح بنصر الله، أو يستمعوا ما امتحنه الله به من المحن التي لا يطيق احتمالها إلا نفوس أنبياء الله بتأييد الله، فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب، ويصطبروا لعوارض الكروب، تأدباً بآدابه، وجرياً في الصبر على ما يصيبهم والاحتساب لما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه.

وتلك غايات لن نبلغ عَفْوها بجهدنا، ولن نصل أدانيها بنهاية ركضنا وشدنا، وإنما علينا بذل الجهد في قصد الاهتداء، وعلى الله سبحانه المعونة في الغاية والابتداء».

وعنوان الكتاب:

«... وأرجو بحول الله الذي له الطول وبيده القوة والحول، أن يكون هذا المجموع كافياً في البابين، وافياً بالغرضين المنتابين، ولذلك ترجمته بكتاب: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ ومغازي الخلفاء».

ومنهجه في إيراد مادته:

«... ولذلك نويت فيه أن أحذف ما تخلله من مشبع الأنساب التي

ليس احتياج كل الناس إليها بالضروري الحثيث، ونفيس اللغات المعوق اعتراضها اتصال الأحاديث، حتى لا يبقى إلا الأخبار المجردة، وخلاصة المغازي التي هي في هذا المجموع المقصودة المعتمدة».

«. . . وكم شيء أستحسنه من غير هذه الكتب المسماة فأنظمه في هذا النظام، وأضطر إلى الإفادة به مساق الكلام، إما متمماً لحديث سابق، وإما مفيداً بغرض لما تقدمه مطابق.

فإن لم يكن بينهم في الأحاديث اختلاف يشعر بنقص، فكثيراً ما أدخل حديث بعضهم في حديث بعض، ليكون المساق أبين والاتساق أحسن.

وإن عرض عارض خلاف فالفصل حينئذ أرفع للإشكال، وأدفع للمقال.

وربما فصلت بين بعض أحاديثهم وإن اشتبهت معانيها، بحسب ما تدعو إليه ضرورة الموضع، أو تحمل على إعادته حلاوة الموقع».

وهكذا، فإنه أفصح عن رغبته في **الجمع التأليفي** بالمواءمة بين الأقوال ليؤلف منها حديثاً متسقاً وعناصر مرتبة، **مع معارضته الرأي بالرأي الآخر، والفصل بينهما لعارض خلاف**، أو بحسب ما تدعو إليه ضرورة الموضع.

ويمكن أن يُضَاف إلى ذلك أن من معالم منهجه في إيراد مادته:

أ ـ الجمع بين الرغبة في الاستطراد والاستقصاء، والرغبة الموازية في الاقتضاب والاختصار؛ ويمثل الأولى قوله:

«. . . وكل هذه الأخبار وإن قطعت بعض ما كنا بسبيله من أمر بني قصيّ فلها ـ أيضاً ـ من الإفادة بنحو ما قصدناه وحسن الإمتاع بالشأن المناسب لما اعتمدناه ما يحسن اعتراضها وينظم في سلك واحد مع ما مر من ذلك أو يأتي أغراضها.

وعلينا بمعونة الله في تجويد الترتيب لذلك كله تطبيق المنفصل ورد

هذه الأحاديث المتفرقة في حكم الحديث المتصل، فنطيل ولا نمل، ونقصر فلا نخل، كل ذلك ببركة المختار الذي يممنا تخليد أوليته، وتيمنا بخدمة آثاره وسيرته، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين وصحابته».

وقوله:

«. . . وهذا كله من الخبر معترض قطع اتصال حديث صوفة وقصي، فنرجع الآن إليه ونصله بموضع انقطاعه».

بينما يمثل الثانية قوله:

«. . . والأخبار في هذا الباب مما نُقِل من ذلك عن الكهان، أو سُمع عند الأصنام، أو هتفت به هواتف الجان كثيرة جداً، وقد أتينا منهما بما استحسناه مما ذكره ابن إسحاق أو ذكره سواه».

وقوله:

«. . . والقصد أطول من هذا، وإنما تركنا ما تركناه منها اختصاراً».

ب ـ **الولوع بالشواهد الشعرية، والإكثار من إيرادها**، إذ الشعر في مذهبه «أعذب جرياً على الألسن، وأهذب رأياً في الإفادة بالمستحسن»، على النحو الوارد في قوله:

«. . . وقد تقدمت من ذلك نبذ منثورة أثناء الكلام، وستأتي إن شاء الله منظومة مع أشكالها، تفوق العقد في النظام، في قصيدة فريدة مفيدة لأبي عبد الله ابن الخصال . . . فقد رأيت أن أورد منها هنا ما يختص بهذا النسب الكريم على اختصار يفي إن شاء الله بالغرض المروم، إذ الكلام المنظوم أعذب جرياً على الألسن، وأهذب رأياً في الإفادة بالمستحسن».

جـ ـ **الشمول الموضعي، والموضوعي**، بمعنى استيفاء الموضوع استطراداً في موضع واحد، من خلال حادثة حالة، تُتْبَعُ بحادثة أو أكثر مستأنفة، على النحو الوارد في قوله عن «سراقة بن جعشم» في معرض الحديث عن هجرته ﷺ إلى المدينة:

إذ اقتضى الحديث عن الهجرة، ذكر تتبع سراقة للنبي ـ ﷺ ـ لقطع الطريق به واختطافه طمعاً فيما بذلته قريش من الإبل لمن يرده عليهم.

منبعاً ذلك ـ استطراداً ـ بحادثتين متباعدتين زمنياً، وإن التأمتا مع سابقتيهما بانتظامها حول شخص سراقة، ودورانها في فلك واحد، وهو «إظهار أعلام النبوة من خلاله»، وهما:

إتيانه النبي ـ ﷺ ـ بالجعرانة مسلماً، بعد فراغه ـ عليه السلام ـ من فتح مكة، وحنين والطائف.

وإلباس عمر بن الخطاب إياه سواري كسرى ومنطقته وتاجه، وقد ذهب ملكه أو كاد أن يذهب.

الإفصاح عن مصادره إجمالاً:

«... ملخصاً جميعه من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم، واستنفذوا في آناءهم، ككتاب محمد بن إسحاق، الذي تولى عبد الملك بن هشام تهذيبه واختصاره، وكتاب موسى بن عقبة، الذي استحسن الأئمة اقتصاده واقتصاره، وغيرهما من المجموعات التي لا يديم الإنصاف قصد جامعها ولا يذم ولا يذم الاختيار اختياره[1].

ولكن عظم المعول بحكم الخاطر الأول على كتاب ابن إسحاق، إياه أردت وتجريده من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار قصدت، وعلى ترتيبه غالباً جريت، ومنزعه في أكثر ما يخص المغازي تحريت.

فإنه الذي شرب ماء هذا الشأن فأنقع، ووقع كتابه من نفوس الخاص والعام أجل موقع.

... وقد وقفت على كتاب محمد بن عمر الواقدي في المغازي، ولم

---

(١) كفتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، والإكليل للهمداني، وتاريخ الرسل والملوك للطبري، والاستيعاب لابن عبد البر، والصحاح والسنن للبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، وأمالي القالي، ومعراج المناقب لابن الخصال.

يحضرني الآن، لكني رأيته كثيراً ما يجري مع ابن إسحاق، فاستغنيت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق في الإيراد، وحسن بيانه الذي لا يُفْقد معه استحسان الحديث المعاد.

وللواقدي ـ أيضاً ـ كتاب المبعث، وهو مشبع في بابه، ممتع باستيفائه واستيعابه، قد نقلت هنا منه جملاً، تناسب الغرض المسطور، وتصد المعترض أن يجور.

وكذلك كتاب الزبير بن أبي بكر القاضي ـ رحمه الله ـ في أنساب قريش، وهو كما سمعت شيخنا الخطيب أبا القاسم ابن حبيش ـ رحمه الله ـ يحكي عن شيخه أبي الحسن ابن مغيث أنه كان يقول فيه: هو كتاب عجب لا كتاب نسب.

ألتقط ـ أيضاً ـ من درره نفائس معجبة، وتخيرت من فوائده نخباً لمتخيرها موجبة.

ومثله التاريخ الكبير لأبي بكر ابن أبي خيثمة، وناهيك به من بحر لا تكدره الدلاء، وغمر لا ينفذه الأخد الدراك ولا يستنزفه الورد الولاء.

وكم شيء أستحسنه من غير هذه الكتب المسماة فأنظمه في هذا النظام، وأضطر إلى الإفادة به مساق الكلام».

ولم يكن ابن سالم الكَلاَعي في كل هذا مجرد ناقل ملخص لمادته عن تلك المصادر، وإنما كان مع ذلك صاحب فكر ثاقب، وعين متفحصة، ورأي حصيف، كشف به عن الخطأ أو التناقض أو التضارب في منقوله عن مصادره، موضحاً أو موفقاً، ومن ذلك قوله في ابتداء الرسول ـ ﷺ ـ بالتنزل في رمضان:

«... وابتدىء رسول الله ـ ﷺ ـ بالتنزيل في رمضان.

يقول الله عز وجل: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾** (البقرة: ١٨١).

وقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (القدر: ١) إلى خاتمة السورة.

وقال: ﴿حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين﴾ (الدخان: ١ ـ ٤).

وقال: ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ (الأنفال: ٤٢)، يعني ملتقى رسول الله ـ ﷺ ـ والمشركين ببدر، وذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان.

هكذا أورد ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ هذه الآيات كالمستشهد بها على ابتداء التنزيل في شهر رمضان على رسول الله ﷺ.

وفي صورة هذا الاستشهاد نظر.

فإن ظاهر قوله سبحانه: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ عموم نزول القرآن بجملته فيه. وكذلك قوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾.

ولم يقع الأمر في إنزاله على رسوله ـ ﷺ ـ هكذا، بل أنزله الله عليه في رمضان وفي غيره متفرقاً، آيات وسوراً، بحسب سؤال السائلين، أو أحداث المحدثين، أو بما شاء الله من هداية العالمين.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾، أي الذي أنزل في شأنه القرآن، أي نزل الأمر من الله ـ عز وجل ـ بصيامه كتاباً يتلى وقرآناً لا يدرس ولا يبلى.

كما يُقَال: «نزل القرآن بالصلاة» أي نزل جزء منه بفرضها، و «نزل القرآن في عائشة» رضي الله عنها، وإنما نزلت منه آيات ببراءتها من الإفك.

ومثل هذا الإطلاق موجود في الأحاديث والآثار كثيراً.

ولنسلم أن معنى قوله: ﴿أنزل فيه القرآن﴾ أي ابتدىء فيه إنزاله، فقد قيل ذلك وليس ببعيد في المفهوم ولا مما تضيق عنه سعة الكلام، ثم نجري

ذلك المجرى الآيتين الأخيرتين، وهما: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾، و﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، وإن بعد ذلك فيهما لما ورد من الآثار المصححة لحكم عمومهما حسبما نذكره بعد، فما بال الآية الأخرى التي هي: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ تنتظم في هذا النظام، وقد أعقبها مفسراً بأن المعنى بذلك يوم بدر، وهو الحق؟!

وهل كان يوم بدر إلا في السنة الثانية من الهجرة، وبعد اثنتي عشرة سنة من البعث ونزول الوحي، أو بعد خمس عشرة سنة، على ما ورد من الخلاف في مدة مكث رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة بعد النبوة، وما زال القرآن المكي والمدني ينزل في ماضي تلك السنين!

فإن كان ابن إسحاق عنى ما ذكرناه عنه ونسبناه إليه فقد بينا وجه رده واستوفينا التنبيه عليه، وإن كان عنى غير ذلك فقصر عنه تحرير عبارته أو سقط على الناقل من كلامه ما كان يفي لو بقي بإفهامه، فالله تعالى أعلم.

والرجل أولى منا بأن يصيب ويسلم، إلا أنه لا ينكر أن يغلط هذا البشر.

ونعوذ بالله أن نقصد بهذا الاعتداد على ذي علم أو الغض من ذي حق، فإن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المتقدمون، بأنوارهم نسري فنبصر ونستبصر، وإلى غاياتهم نجري فطوراً نصل وأطواراً نقصر، فلهم دوننا قصب السبق، ولهم علينا في كل الأحوال أعظم الحق، إذا أصابوا اعتمدنا، وإذا أخطأوا استفدنا، وإذا أفادوا استمددنا، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء، ووفقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء».

وهكذا فإن هذا الشاهد ـ على طوله ـ يريك كم كان ابن سالم ـ رحمه الله ـ ناقلاً بصيراً بما ينقل، ناقداً حجة فيما يصدر من نقد أو يبدي من رأي، مهذباً في نقده أيما تهذيب، إنها خلق العالم المسلم الذي سمي بخلقه العلم فتمثلت كتاباته ذلك الخلق القويم.